

نفحات القرآن

[287] مسألة التوحيد في إطار آخر وهو أنّ المشركين أنفسهم يُقرّون أنّ الأصنام ليست خالقة للسماء والأرض والشمس والقمر أبداً وتقول : (وَلَدَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ إِنَّا) . فقد كان المشركون يعتقدون أنّ الأصنام شريكة في العبادة أو لها التأثير على مصير الإنسان في الخالقية ، فلا يصدق عاقل بأنّ كتلة من الحجر والخشب مصنوعة بيد الإنسان على هيئة الصنم تكون خالفاً للسماء والأرض وحتّى أنّهم لم يعتقدوا أنّ للأنبياء والأولياء هذا المقام أيضاً . يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى نفوذ هذه العقيدة في أعماق الفطرة الإنسانية ، وعلى أي حال فإنّ الفصل بين (توحيد الخالقية) و (توحيد العبادة) تناقض صريح ، لأنّ الخالق والرازق هو اللائق بالعبودية فهو الذي سخّر لشمس والقمر لينعم بهما الإنسان وجعلهما في خدمته . بناءً على ذلك لا تنفصل (الخالقية) عن (الربوبية) ولا (الربوبية) عن (الألوهية) ، وبعبارة أوضح : هو الخالق وهو المدبّر للعالم وهو أهل لعبودية العباد . وقد حاول بعض المفسّرين مثل كاتب (في ظلال القرآن) أن يعتبر التفات مشركي العرب إلى (توحيد الخالقية) ناشئ من تعليمات الأنبياء كالنبي إبراهيم (عليه السلام) (1) . إلّا أنّّه لا ضرورة لهذا الإصرار ، حيث يقرّ كلّ إنسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان ، كما أُشير إلى هذا المضمون في تفسير روح البيان (2) . إنّ الاستناد إلى مسألة الخلق ثمّ التسخير إشارة إلى مسألتي (الخلق) و (التبدير) حيث يكون الجميع بأمره والمراد من (التسخير) في هذه الآية - _____ 1 - في ظلال القرآن : 6/428 . 2 - روح البيان :